المنهج المعرفي والنموذج التفسيري في فكر عبد الوهاب المسيري

إشكالات الوعي والتحيز والقيم

أ.د. مصطفى عطية جمعة

مقالات فلسفية

8 أكتوبر 2023

جميع الحقوق محفوظة 2023

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج المعرفي والنموذج التفسيري في فكر عبد الوهاب المسيري

إشكالات الوعي والتحيز والقيم

أ.د. مصطفى عطية جمعة

الفهرس

ملخص 5

Abstract 6

مقدمة 8

المبحث الأول: النموذج التفسيري: المفهوم والاستراتيجية عند المسيري 9

المبحث الثاني: المنهج والتحيز وعلاقتهما بالنموذج المعرفي 20

الخاتمة 28

المصادر والمراجع 30

ملخص

النماذج التفسيرية والأبعاد المعرفية في فكر عبد الوهاب المسيري

تستهدف هذه الدراسة دراسة مفهوم النماذج المعرفية عند المسيري بوصفها حجر الزاوية في مشروعه الفكري، عبر الوقوف عند ثوابت النموذج المعرفي وأسسه التي انطلق منها. وقد جاءت الدراسة في محورين، الأول بعنوان: النموذج التفسيري: المفهوم والاستراتيجية عند المسيري، وفيه تأصيل لمفهوم النموذج التفسيري عامة، وفي فكر المسيري خاصة، في ضوء مسيرة حياته وبتكوينه المعرفي والفكري.

والمحور الثاني، بعنوان: المنهج والتحيز وعلاقتهما بالنموذج المعرفي، وأبرز التقاطعات الفكرية في نموذج المسيري المعرفي مثل علاقته بالتحيز وتحليل الخطاب والهوية الحضارية، وموقفه من الآخر الغربي. ومن أبرز نتائج الدراسة: التشديد على الثقافة الموسوعية متعددة الروافد التي ينبغي أن يكون عليها المفكر، والتي تتيح له بناء نموذج معرفي، لتفسير الظواهر والقضايا والمشكلات، بعيدا عن أحادية المنهج والفكر والتوجه والرؤية، بأن يلتزم مثلًا إيديولوجية واحدة، أو منهجا واحدا، وقد يهمل أبعادا في الظاهرة لها آثار كبرى، مع التسليم بأن التحيز لا يمكن إهماله، فهو من سمات النفس البشرية، على أن يكون تحيُّزًا للقيم الإنسانية، وانتصارًا للموضوعية والحقيقة، وقد استطاع عبد الوهاب المسيري أن يكون قدوة للباحثين في العالم العربي، عبر مؤلفاته وموسوعته عن اليهود والصهيونية، فبنى نموذجًا معرفيًّا مركَّبًا للتفسير العلمي، مستقًى من الظاهرة موضوع الدراسة، ومنتصرًا للقيم السامية.

Abstract

nterpretative models and cognitive dimensions

In the thought of Abdul Wahab Al-Mesiri

This study aims to study the concept of cognitive models according to Al-Mesiri as the cornerstone of his intellectual project, by examining the constants of the cognitive model and its foundations from which it started. The study came in two axes, the first entitled: The Interpretive Model: The Concept and Strategy according to Al-Messiri, which contains a rooting of the concept of the interpretive model in general, and in Al-Messiri's thought in particular, in light of his life's journey and his cognitive and intellectual formation.

The second axis, entitled: Methodology, bias, and their relationship to the cognitive model, highlights the most prominent intellectual intersections in Al-Mesiri's cognitive model, such as its relationship to bias, discourse analysis, cultural identity, and its position on the Western other. Among the most prominent results of the study: the emphasis on the encyclopedic, multi-stranded culture that a thinker should have, which allows him to build a cognitive model to interpret phenomena, issues, and problems, away from the monolithic approach, thought, orientation, and vision, by adhering, for example, to one ideology, or one approach, and he may neglect Dimensions in the phenomenon have major implications, while recognizing that bias cannot

be neglected, as it is a characteristic of the human psyche, provided that it is a bias towards human values, and a victory for objectivity and truth. Abdul Wahab Al-Mesiri was able to be a role model for researchers in the Arab world, through his books and his encyclopedia about the Jews. And Zionism, so he built a complex cognitive model for scientific explanation, drawing from the phenomenon under study, and advocating lofty values.

مقدمة

يشكل مشروع عبد الوهاب المسيري (1938-2008) إضافة متميزة، وعلامة فارقة في مسيرة الفكر العربي المعاصر، بالنظر إلى طبيعة الموضوعات والقضايا التي ناقشها، وجعلها موضع بحوثه، مثل الصهيونية واليهودية التي أفرد لها موسوعة ضخمة، وكتبًا عديدة، والعلاقة بين الشرق والغرب، والموقف من الفكر الغربي عامة، وكيفية مواجهة حالة الاستلاب الحضاري والثقافي، وتفكيك الطرح الغربي نفسه في قراءته للتراث العربي الإسلامي، وفي التفسيرات الغربية للواقع العربي المعاصر، رافضًا اعتماد مقولات الاستشراق، والتسليم بمنهجيات الغرب بوصفها مسلمات علمية وموضوعية لا نقاش حولها، فالرؤى الغربية حاملة لقناعات ظاهرة ومبطنة، تشتمل على تحيزات الغرب ضد الإسلام والعروبة، ونابعة من المنظور الاستعماري الاستعلائي، والذي لا يزال تأثيره ممتدا إلى عصرنا، وللأسف هناك كثير من المفكرين العرب سقطوا في شرنقته، متيّمين بالنموذج الغربي، يرونه طريقا أوحد للنهضة والتقدم، بل ويتحصنون في الخندق الغربي فكرًا ونفسية وممارسةً. ولذا، فإننا نرى أن مؤلفات المسيري تشكّل مشروعًا متكاملًا، يقرأ به الواقع والتاريخ، وفق منهجية معرفية، تسعى إلى استقلالية الرؤية، وعلمية المنهج، وموضوعية الطرح، والمحافظة على هويتنا.

في ضوء ذلك، تأتي هذه الدراسة، مستهدفة: دراسة مفهوم النماذج المعرفية عند المسيري بوصفها حجر الزاوية في مشروعه الفكري. وذلك بالتركيز على ثوابت النموذج المعرفي عنده، والأسس التي انطلق منها، على قناعة منا أن

المنهج هو لُب المعرفة، ومنه يؤسس العالَم نموذجه التفسيري والمركب، والإجراءات المتبعة في تطبيقه.

وقد جاءت الدراسة في مبحثين: الأول بعنوان: النموذج التفسيري: المفهوم والاستراتيجية عند المسيري، وفيه تأصيل لمفهوم النموذج التفسيري عامة، وفي فكر المسيري خاصة، وعلاقته برؤيته لذاته وبتكوينه المعرفي والفكري. والمحور الثاني، بعنوان: المنهج والتحيز وعلاقتهما بالنموذج المعرفي، وأبرز التقاطعات الفكرية في نموذج المسيري المعرفي مثل علاقته بالتحيز وتحليل الخطاب والهوية الحضارية، وموقفه من الآخر الغربي، الذي روّج لنموذجه الحضاري على مستوى المعايير والقيم والنهضة، وتبناها كثير من الأكاديميين العرب.

نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن تكون هذه الدراسة إضافة معرفية في دراسات النماذج التفسيرية ذات الصلة عامةً، وأن تكون لبنة في صرح قراءة مشروع عبد الوهاب المسيري خاصةً، على قناعة منا أن اجتهاد الباحث الفرد يظل قاصرًا وإن ابتغى الكمال، وهو في نقص يستوجب الإكمال، وذلك ديدن الجهد البشري.

المبحث الأول: النموذج التفسيري: المفهوم والاستراتيجية عند المسيري

يمثل النموذج التفسيري استراتيجية ومنهجية معرفية؛ لفهم الظواهر والقضايا والمجتمعات الإنسانية. فهو بمثابة رؤية مسبقة ينتهجها الباحث سعيًا إلى وصف دقيق وعلمي للظواهر أو الموضوعات موضع دراسته، بعيدًا عن الرؤى العشوائية، والنظرات الجزئية، والتفسيرات الانطباعية، فيكون النهج علميًّا، محددًا الأطر والإجراءات.

فمفهوم «النموذج» -في لبّه- يعني منهجًا علميًّا، يختطه الباحث من أجل دراسة الظاهرة أو القضية أو الموضوع، وفق خلفية معرفية راسخة، وخطوات واضحة، مع الأخذ في الحسبان أن هناك تعددًا في الدلالات المقصودة من اصطلاح النموذج Model فهو يستخدم في بعض الحالات مترادفًا للنظرية، وفي حالات أخرى دالا على نسق من المفاهيم المجردة عند مستوى معين من النظرية، وأيًّا ما كانت الدلالة المرادة، فإن جوهر النموذج يتطلب اشتغال الباحث بالنظرية، وتجنب النزعة الإمبريقية (التجريبية). فالهدف الأساسي من النماذج (التفسيرية) هو تبسيط الظواهر، كمساعدة في عملية الصياغة المفاهيمية والتفسير[1].

وفي رأينا أن مفهوم النموذج يشمل النظرية والإجراء، بشرط أن تكون قادرة على التفسير أولا لأبعاد الظاهرة، وأيضا استخلاص عدة مفاهيم، وصياغتها لتكون أساسًا معينًا في تفسير شبيهات الظاهرة لاحقًا، والتنبؤ بمجرياتها ونتائجها مستقبلًا.

فالنموذج التفسيري هو المنهج الأنسب في العلوم الإنسانية بشكل عام، لأنه مكون من نظريات أو رؤى شاملة للعالم، تقوم بتيسير نشاط الدراسة، والبحث في المجالات التي تغطيها الدراسات العلمية المختلفة. والنموذج النظري المصاغ يمكن أن يكون إنجازًا فكريًّا؛ يرسي المبادئ الموجهة داخل ميدان علمي معين، واللازمة لما يجدّ في المستقبل؛ من تساؤلات وتحقيقات في مجال الظواهر المعنية. والنموذج النظري بهذا الشكل يعد نموذجًا ذا فائدة عملية، يتيح للعلماء مواصلة نشاطهم في مجال الممارسة العلمية النافعة، وتصبح المشكلات اللاحقة في المستقبل، والمراد بحثها محل اتفاق أوضح. ويصل النموذج النظري إلى مرحلة الأزمة، حينما يصبح من العسير التوفيق بينه وبين الظواهر التي يواجهها العلماء في المجال العلمي الذي يخدمه هذا النموذج، وصارت الظواهر أكثر خطورة[2]، واستعصت على التفسير من قبل الباحثين.

(1) موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2001، المجلد الثالث، ص1545.

(2) موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية، أندرو إدجار، وبيتر سيد جويك، ترجمة: هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2014، ص695، 696.

فلا بد أن يرتكز النموذج على أسس معرفية، تتيح للباحث التحليل المعمق، والربط بين أبعاد الظاهرة/ الظاهرات، ووفق مبادئ ثابتة، تنأى به عن الهوى الذاتي، والانطباعية المقيتة، وتكون لديه القدرة على استشراف المستقبل، وفق رؤية تنبؤية، تستند إلى النتائج المستخلصة من دراسة الموضوع، مع الأخذ في الحسبان أن النموذج في النهاية جهد بشري قابل للتعديل، والإلغاء، والانتقال إلى نماذج أخرى، وهذا يتوقف على مدى نجاح النموذج المستخدم في الإجابة عن تساؤلات الباحث، وفي تفسير الظاهرة تفسيرًا علميًّا منطقيًّا، وإلا سيكون من العبث مواصلة استخدامه؛ وهو ما يراه توماس كون عملية انتقال من براديغم مأزوم، إلى براديغم جديد، يكون منشئًا لتقليد جديد لعلم عادي، وهي أبعد ما تكون من عملية تراكمية، فهي عملية تتحقق عن طريق إعادة صياغة براديغم قديم، أو توسيعه، والأصح أن يقال بناء الحقل على أسس جديدة، من خلال تغيير أهم التعميمات النظرية الابتدائية للحقل، فضلًا عن تغيير عدد كبير من طرائق البراديغم وتطبيقاته، لتحقيق الصياغة الجديدة[1].

فمفهوم «النموذج» يتوقف على أساليب التفكير والطرائق العلمية التي يلجأ إليها الباحث في دراسته للظاهرة. صحيح أن هذا المفهوم جرى تعميقه بشكل كبير في العلوم الاجتماعية، ولكنه يتسع ليشمل مختلف العلوم الإنسانية، ويمكنه الاستفادة من منهجيات العلوم التجريبية أيضًا، ولكن وفق شروط منطقية وإجرائية، يشير إليها محمود قاسم، أهمها عدم الاستسلام للآراء الغامضة، واللجوء إلى الملاحظة الدقيقة للظاهرة، على أن تكون الذات الباحثة خارج الظاهرة، بما يتيح لها التأمل العميق، والرؤية النافذة، وهذا لا يعني أن الباحث يقف عند عتبات الظاهرة دون الولوج فيها، وإنما يلج في الظاهرة، ولا يسقط في شرنقتها، وإنما تظل روح الموضوعية كائنة فيه، مع تفعيله لمنهج الدراسة المقارنة، بين الظاهرة أو الموضوع والظواهر الأخرى، وقبل هذا وذاك لا بد من وجود نظرة فلسفية،

(1) بنية الثورات العلمية، توماس س. كون، ترجمة: د. حيدر حاج إسماعيل، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص170.

تتيح تفسيرًا أعمق فكريًّا وترابطيًّا[1].

وبذلك تتحقق الاستفادة من منهجيات البحث في العلوم الطبيعية، مثل الملاحظة المباشرة ومنهجيات البحث في العلوم الإنسانية مثل التأمل، والرؤية الفلسفية، والنظر إلى الموضوع بوصفه جزءا من العالم الإنساني، بكل ما فيه من تعقيدات.

على جانب آخر، وكما يشير صبحي قنوص، فإن تعريف النموذج التفسيري المثالي، يظل في النهاية ضمن التعريفات التحكمية، بمعنى أن قيمة التعريف للمفهوم تتحدد في ضوء فائدته في البحث وصياغة النظرية التفسيرية، وهذا الرأي يعود إلى ماكس فيبر، الذي لا يفسر النظرية الاجتماعية معتمدًا فقط على العلاقات الاجتماعية بين الوسائل والغايات، وإنما يربطها باستمرار بنسق اجتماعي معين، وبالظروف التي يتم في ضوئها تحقيق الغايات، ومن ثَمَّ، يؤكد فيبر باستمرار أن كل المفاهيم التي يقدمها لا تكفي في حد ذاتها، وإنما لا بد أن يستخدمها علماء الاجتماع في تجسيد النماذج المثالية لتفسير مشكلات اجتماعية ملموسة، بل الأكثر من ذلك أن هذه النماذج بدورها ليست غاية مطلقة ولكنها وسيلة للتفسير والتحليل المنطقي[2]، وهو ما يجب اعتماده في قراءة وظيفة أي نموذج علمي، فمعيار صدقه، ونجاحه، واستمراره؛ يتوقف على قدرة النموذج على تفسير مكونات الظاهرة وأبعادها ومسبباتها من ناحية، وعلى تحليل العلاقات عقلانيًّا ومنطقيًّا من ناحية أخرى.

وهو ما يؤكده ماكس فيبر بأن القواعد الحاكمة في المنهج (السوسيولوجي وغيره) لا بد أن تكون تصورات عقلانية، بالتوازي مع تطابق المعنى الذي يمكن استنتاجه،

(1) المنطق الحديث ومناهج البحث، د. محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1953، ص323، 324.

(2) دراسات في علم الاجتماع، د. صبحي محمد قنوص، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص104، 105.

مع توافر الخبرة الخارجية التي تظهر في كل حالة على حِدَة[1]، أي خبرة الباحث المكتسبة من دراسته للظواهر والقضايا والموضوعات المختلفة.

وإذا انتقلنا إلى الاستراتيجية المنهجية التي يعتمدها عبد الوهاب المسيري في نماذجه التفسيرية، نلحظ أنه قد صاغها في تعريف جامع مانع، مفاده أن النموذج التفسيري: هو بنية تصوّرية، يجردها العقل البشري من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث، فيستبعد بعضها لعدم دلالتها -من وجهة نظر صاحب النموذج- ويستبقي البعض الآخر، ثم يرتبها ترتيبًا خاصًّا وينسقها تنسيقًا خاصًّا بحيث تصبح -في وجهة نظره- مترابطة بشكل يماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع. وعملية التجريد هذه يمكن أن تتم بشكل غير واع، إلى أن تأخذ شكل خريطة إدراكية يستنبطها الإنسان تمامًا، ويحملها في عقله ووجدانه، فتحدد طريقة ومجال إدراكه للواقع الخام المحيط به، فيقوم بتهميش بعض التفاصيل، وتأكيد البعض الآخر، بحيث يراها مهمة ومركزية، وهذا هو مصدر التحيزات الكامنة[2].

إن تعريف المسيري للنموذج هو بمثابة رؤية مركزية عامة للنماذج التفسيرية على إطلاقها، منطلقا منها في مؤلفاته، وقرأ بها مؤلفات الآخرين، وناقش مختلف الطروحات، وبنى عليها موسوعته عن الصهيونية واليهودية، ويمكن بلورتها في محددات عديدة:

أولها: أنها بنية تصوّرية، بمعنى أنها مركبة في أساسها من نظريات وروافد معرفية وإجرائية عديدة، يتم تجريدها، واستخلاصها، من قبل عقل الباحث، مما علق بها من تصورات ووقائع وملابسات تاريخية. وبعبارة أخرى: فإن الباحث يختار

(1) مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ماكس فيبر، ترجمة: صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2011، ص38.

(2) دفاع عن الإنسان: دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2006، ص298.

منظومة من المفاهيم يجمعها ويؤطرها، من واقع اطلاعاته وقراءاته المختلفة، ثم يرتبها في نسق فكري منتظم، مصحوبا بطرائق منهجية، يفترض أنها ستساعده في تفسير الظاهرة أو الموضوع المستهدف دراسته، فتشكل النموذج نابع من الموضوع ومن عقل الباحث.

ثانيها: أن السمة الأساسية لهذه البنية التصورية هي اعتمادها النسقية المركبة لاكتشاف المسببات التي تساعد في دراسة العلاقات التي تربط بين مجالات الظاهرة المختلفة بشكل يحفظ للإنسانية طابعها التركيبي. وهو بذلك يتجاوز النظر التجزيئي الذي لا يمكن أن يفسر الظاهرة الإنسانية بشكل تكاملي وكلي، وينحصر في جزئياتها.

وهو ما يربطه المسيري بما أسماه «الخريطة الإدراكية» التي تشمل الحدود الإدراكية الناجمة عن تكوين الباحث لنموذجه الإدراكي، موقنًا أن إدراكه ودراسته للظاهرة أو القضية تتم من خلال الأداة التي يستخدمها، ألا وهي النموذج التفسيري، حيث يتحدد الإدراك بمدى ضيق النموذج أو اتساعه. ويفرّق المسيري بين الذات والظاهرة المدروسة، حيث يقرر أن الواقع الخارجي موجود في طبيعته وماديته وموضوعيته واستقلاله، خلقه الله خارج وعينا وإدراكنا وإرادتنا، ولكننا لا نعيه إلا من خلال النماذج والخرائط الإدراكية، التي تبقي وتستبعد وتهمِّش وتضع في المركز (بؤرة الاهتمام) ما تريد من هذا الواقع[1]، وفق تحيزاتها، ورغباتها، وثقافاتها، وقيمها.

ثالثها: أن عملية النموذج وتنسيقه وتشكيله، وما يتبعه من خريطة إدراكية؛ تعتمد على وعي الذات الباحثة، وأيضًا على ما يترسب في لا وعيها، وينجلي في قناعاتها وتصوراتها، خاصة فيما يتعلق بالظواهر والقضايا الإنسانية، المختلفة بشكل جوهري -على حد قول المسيري- عن الظاهرة الطبيعية المادية، فمكونات الظاهرة الإنسانية هي تراكم تراثي ونفسي، بجانب اختلاف الزمان والمكان. فالعقل الإنساني كيان

(1) المرجع السابق، ص300.

مبدع له مقدرات توليدية عالية، كما أن الواقع -واقع الظاهرة أو القضية- ليس ماديًّا بسيطًا جامدًا، بل هو مستويات مختلفة، ودوائر متداخلة، متصلة ومنفصلة، ولكل ظاهرة منحاها الخاص وفرادتها[1]، فلا ينبغي تسطيحها، ولا النظر إليها بأحادية، أو من زاوية أو زوايا واحدة، إذا كنا نروم دراسة شاملة لها.

رابعها: أن رؤية المسيري للعقل الإنساني تنظر إليه وفق النموذج المركب، الذي يقرأ العقل في أبعاده الإدراكية، وفي قدرته على توليد الأفكار، وضمن الروافد والتحيزات النفسية والاجتماعية المشكلة للذات العاقلة نفسها، وأيضًا ضمن خبراتها المختلفة. ولذا، فإن المسيري يشدد على رفضه للتفسيرات السريعة المباشرة التي تختزل الظواهر في بعد واحد روحي أو مادي، هذه لا يمكن أن تقدم تفسيرًا كافيًا للظواهر الإنسانية، ولذا، لا بد من بذل محاولة للتركيب المستمر، بدلًا من الصيغ الاختزالية، ولا بد من تنويع المقولات التحليلية، التي يمكنها رصد الشيء ونقيضه، وصولًا إلى النماذج الكامنة في الخطاب أو وراء الظواهر. وعلى صعيد الظاهرة الإنسانية، لا بد من استعادة الفاعل الإنساني، أي الإنسان الإنسان، أي الإنسان بكل تركيبته وأسراره وفاعليته[2]، بما يعني أننا لا بد أن نتأمل الظاهرة -موضع الدراسة- من كافة جوانبها، ومن ثم اختيار النظريات والأدوات التي تفسر هذه الظاهرة بشكل عميق ومنطقي، وهو النموذج المركب، الذي لا يكتفي بعامل أحادي، ولا تفسير اختزالي، وإنما يعتمد مداخل وزوايا عديدة، وصولا إلى تفسير شامل في منظور الباحث.

خامسها: يؤكد المسيري على أهمية النأي عن الصيغ اللفظية والقوالب الجاهزة، والصور النمطية، والثنائيات الصلبة (سالب/ موجب، معنا/ ضدنا)، لأنها تؤدي إلى قبول ما هو قائم، دون تساؤل، مما يحول دون توسيع الأفق وإدراك خصوصية الظاهرة، فلا بد من النظر إلى الظاهرة بطريقة مستقلة، لنراها في كل تركيبتها وتنوعها، وكما ندركها نحن، وليس كما يدركها الآخر، أو كما يصورها لنا. ولا بد

(1) المرجع السابق، ص289.

(2) دفاع عن الإنسان: دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، ص290.

من الاقتراب من الظاهرة بعقل متفتح، لا يخشى من الاجتهاد في محاولة لتجريد الحقيقة، من جماع الحقائق، ومن كم التفاصيل المتناثرة (الموضوعية المادية) التي يواجهها[1]، ويبتعد في المقابل عن التعميم الكاسح، الذي يخل بفهم الظاهرة، ويكوّن رؤية ضبابية قد تكون خاطئة عن الظواهر الأخرى المشابهة. وهذا ليس معناه -في رأي المسيري- رفض التعميم بشكل عام، فنحن في حاجة في ممارساتنا الفكرية والبحثية إلى تعميمات وتجريدات، تختزل المفاهيم التي تم التوصل إليها من خلال نماذج عقلية افتراضية؛ انطلاقًا من تصنيف معطيات الواقع، فبدون التعميم (الاصطلاحي) لا يمكن أن يكون هناك إبداع، وبتجريد النماذج الكامنة، نصل إلى علاقات الأشياء كما ندركها عبر بحوثنا وتجاربنا الخاصة[2].

بما يعني أن المسيري رافض للمناهج أحادية البعد، أو التفسيرات نمطية الوصف، وسعى إلى اسكتناه الظاهرة أو الموضوع، مقرًّا بأهمية التأمل الذاتي، والخبرة والحدس، جنبًا إلى جنب مع المفاهيم النظرية، والطرائق المنهجية، في دراسة الموضوع، مؤكِّدًا في الوقت ذاته على أهمية النموذج المركب المبني على استقراء عميق للظاهرة أو الموضوع موضع الدراسة، وبمعنى آخر، تتوجب دراسة الظاهرة بعمق، ومعرفة خلفياتها، ثم نشتق النموذج المركب الذي يفسرها، الذي يمكن أن يشتمل على نظريات وخلفيات عديدة، تسهم في إيضاح الظاهرة ومعرفة مكوناتها والتنبؤ لها.

وهو ما فصّله المسيري وهو يتحدث عن اكتشافه -من خلال تأمل ذاته- أن الحياة الإنسانية مركبة ومفعمة بالأسرار والثنائيات والتنوع، وليست بسيطة أو سطحية أو أحادية، وأن الإنسان كائن فريد غير مادي وغير طبيعي، مع أنه يعيش داخل العالم الطبيعي والمادي[3]، وهذا بعد مهم، يرتبط بعلاقة الذات الباحثة

(1) المرجع السابق، ص290.

(2) المرجع السابق، ص291.

(3) العلمانية والحداثة والعولمة (حوارات عبد الوهاب المسيري)، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر للنشر، دمشق، 2013، ص16.

بما تنتجه من معرفة، فإدراكنا للوجود من حولنا، يعني ببساطة مستوى إدراكنا لذواتنا، وفهمنا لها، والأمر ذاته في النموذج المعرفي، فمن كان باحثًا أحاديًّا أو مسطَّحًا أو ضحلًا في ثقافته، أو متعصبا في نفسه، فهو حتمًا سينعكس على المناهج التي يستخدمها، فكل إناء ينضح بما فيه، وكل باحث يختار ما يفهمه، وينسجم مع ذاته، شاء أم أبى. ففكرة فصل الذات الباحثة عن المنهج والموضوع غير ذات جدوى، فإذا كان التحيز كامنًا في الذات الباحثة، فإن مستوى وعيها وثقافتها ينعكس على اختيار النموذج من ناحية، وأيضًا على مهاراته في توظيف النموذج، وإجراءاته، من أجل تحقيق الغرض المراد، وهو تفسير القضية أو المشكلة في كافة أبعادها، والإجابة عن الأسئلة المطروحة، واختبار الفرضيات، والنظر في كيفية تحققها، أو عدم تحققها، وكل هذا مرهون بثقافة الباحث، وعمقه المعرفي، ومهاراته الفكرية والبحثية.

وتلك نقطة ينبغي التوقف عندها، حيث يعمّقها المسيري في كتابه اللغة والمجاز، مؤكدا أن النموذج المعرفي بنية تصورية، ينبغي اختباره لاكتشاف مقدرته التفسيرية والتصنيفية، ونفضل في هذا السياق استخدام لفظة «تفسيرية»، بدلًا من ذاتية وموضوعية، لأنها تؤكد دور العقل الإنساني، وتستعيد البعد الاجتهادي، غير النهائي في رصد الواقع، على عكس ذاتي وموضوعي تدوران في إطار الموضوعية السلبية المتلقية، ففي النهاية تفسير العالم يظل اجتهاده[1]، المرتبط بمهاراته البحثية.

على جانب آخر، فإن المسيري يشدد على منحى غاية في الأهمية يتصل بتناوله للنموذج المعرفي في بعده التفسيري، فقد لاحظ أن الخطاب التحليلي العربي، الذي ينبغي أن يكون ساعيًا إلى تفسير الظاهرة أو المشكلة، وتحليلها بعلمية وموضوعية؛ قد تم تسييسه، مما يعني استبعاد الجوانب المعرفية اللازمة للتفسير، وهي أبعاد أساسية لفهم أية ظاهرة مركبة، خاصة في القضايا ذات المنحى السياسي، مثل

(1) اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002، ص218.

القضية الفلسطينية، وعلاقتها بالمشروع الصهيوني، وانتصار الغرب له، حيث تتقاطع مع الخطاب العربي في نظرته إلى الصهيونية خطابات عديدة، مثل الخطاب التعبوي، والخطاب القانوني، والخطاب المدين لممارسات الصهاينة الإجرامية في فلسطين، وينأون في كل ذلك، عن الخطاب التفسيري الذي لا يسعى لفهم الآخر (الصهيونية) بهدف التعبئة، وإنما يحاول إدراكه في أبعاده الحقيقية، المركبة، التي يمكن تفسيرها، وعملية التفسير تجعل التنبؤ بسلوكه مسألة ممكنة، وهي ليست عملية أكاديمية، وإن تمت بآليات أكاديمية، لكن الهدف النهائي منها؛ ليس مجرد البحث العلمي المجرد، وإنما تحسين مقدرتنا على التصدي لهذا العدو. ويدين في الوقت ذاته، الخطاب التفسيري الاختزالي، الذي يختزل الصهيونية في البعد التآمري، ويحصر مقولاته في تاريخ اليهود ومؤامراتهم، وارتباطهم بالمشروع الاستعماري الغربي، وهو ما نجده عند الماركسيين من العرب[1]، وكذلك لدى القوميين العرب أو لدى أنصار التيار الإسلامي. وبالطبع فإن مثل هكذا خطاب متوقع، ومقبول، إن لم يكن متطلبًا، لأننا في صراع مستمر مع الكيان الصهيوني، الذي لا يتوقف في الداخل عن قتل الفلسطينيين، وجرف أراضيهم، وقضم ما تبقى من الأراضي المحتلة ببناء المستوطنات عليه، ولا يتوقف في الخارج عن مؤامراته المستمرة لإشعال الحروب في المنطقة العربية، بل والاعتداء المتواصل على الأقطار العربية، فمن الصعب فصل السياسات الصهيونية عما يجري في مثلث سوريا ولبنان والعراق، وأيضًا سياساتها الإقليمية نحو مصر ودول الخليج وإيران وتركيا. كما يصعب فصل سياستها عن السياسة الأمريكية، فالكيان الصهيوني يعيد استغلال الأحداث وإن كانت مفاجئة، ليديرها لصالحه، ويجد الدعم المطلق من الولايات المتحدة[2].

(1) الثقافة والمنهج (حوارات مع عبد الوهاب المسيري)، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2009، ص230.

(2) السياسات الإسرائيلية الأمريكية ومثلث سوريا ولبنان والعراق: التطورات، الأسباب، الأهداف، أمجد أحمد جبريل، مجلة قضايا ونظرات، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، القاهرة، العدد 16، يناير 2020، ص150، 151.

@@@فمن الطبيعي أن يكون الخطاب التعبوي والتحريضي موجودا، جنبا إلى جنب مع الخطاب التآمري، فالمنطقة العربية كانت ولا تزال موضعًا لصراع القوى العالمية، وتمثل إسرائيل رأس الحربة في ذلك، وهو ما تعلنه جهارًا وظهارًا. وبعبارة أخرى: إن مثل هكذا خطاب مطلوب، ونحتاج إليه، خاصة مع تصاعد دعوات التطبيع، وترويج شعارات السلام والتعايش، وقبول الأمر الواقع، واعتبار الكيان الصهيوني جزءًا من منطقة الشرق الأوسط، التي تشمل عربًا وغير عرب، وما قضية فلسطين إلا قضية إنسانية، يمكن حلها في إطار إقليمي أي تتحمل الدول العربية فاتورة اللاجئين وإعاشتهم وتشغيلهم، ولا بأس من أن تعطيهم توطينا في أراضيهم، وفق صفقة القرن.

ولذا، يطالب المسيري بالخطاب التفسيري المركب لاستخدامه في تفسير أية ظاهرة، ليس بإرجاعها إلى سبب واحد، وإنما إلى أسباب مركبة: إنسانية واجتماعية ونفسية وأنثروبولوجية، ويبدو أن من مشكلات الفكر الحديث التفسير الأحادي للظاهرة، فالماركسيون يفسرون الواقع في إطار العنصر الاقتصادي، وأتباع فرويد يفسرونه في إطار العنصر الجنسي، والداروينيون يفسرونه في إطار النزعة إلى البقاء من خلال القوة، فهي محاولات من الفكر العلماني لرد الظاهرة الإنسانية إلى عنصر واحد مادي، أو لعنصرين ماديين، ومما لا شك فيه أن هذه العناصر قد تفسر بعض الجوانب، ولكنها لا تفسر الظاهرة في تركيبيتها[1].

فالخطاب التفسيري المركب، نابع من النموذج التفسيري المركب، والذي يفعّل كل النظريات والعلوم، وعلى قدر ما تسمح به الظاهرة موضع الدراسة، من أجل تفسيرها، مما يوجب على الباحث ثقافة عميقة، متنوعة المعارف والمناهج قبل ولوج الظاهرة، ثم تفعيل هذه الثقافة، واستخدامها في تفسير الظاهرة بعد دراستها.

(1) الثقافة والمنهج (حوارات مع عبد الوهاب المسيري)، ص230، 231.

المبحث الثاني: المنهج والتحيز وعلاقتهما بالنموذج المعرفي

المنهج هو الدرب الذي يسير فيه الباحث في دراسته للظاهرة أو الموضوع أو القضية، وهو بمثابة خلفية فكرية للباحث، يُشتَق منها مصطلحات ومفاهيم وإجراءات يتبعها الباحث في دراسته. فعلى سبيل المثال منهج النقد الثقافي، نابع من حقل الدراسات الثقافية، الذي هو الأساس المعرفي لأي باحث يروم تحليل نص أو دراسة سلوك وفق رؤية ثقافية، وتكون المصطلحات القائمة في الدراسات الثقافية هي الدعائم الفكرية التي يستند إليها، مع الأطر والإجراءات التي هي خطوات الدراسة الفعلية.

وهو ما يعبر عنه عبد الوهاب المسيري بقوله: المنهج هو تعبير عن طريقة تفكير الباحث، ورؤيته للعالم، ونحن نحدد المقدمات والأسئلة من خلال المنهج، ومن ثم تبدأ الأجوبة في التحدد والتبلور. ونحن إن لم نحدد الأسئلة والمقدمات لأنفسنا، حددها لنا الآخر، ومن ثم حدد لنا أجندتنا البحثية، فنجد أنفسنا نطرح أسئلة قد لا تعنينا كثيرًا، ونهمل القضايا الأكثر حيوية، كما سنصل في نهاية الأمر إلى نتائج تدعم وجهة نظر الآخر (الغربي)، بينما لو حددنا الأسئلة، وحاورنا الواقع والظواهر من أرضيتنا (الفكرية)؛ فسنصل إلى إجابات قد تكون في غالب الأمر مختلفة اختلافًا جوهريًّا عن رؤية الآخر (الغربي)، وعن الحلول التي يطرحها، ولكنها نابعة من واقعنا، ومن ثم يصبح بوسعنا التعامل مع هذا الواقع وتغييره[1].

لقد سعى المسيري إلى الخروج من شرنقة المناهج الغربية من خلال المنطلقات

(1) المرجع السابق، ص225.

الأساسية لأية منهج، عند التعرض للقضية أو المشكلة، ألا وهي طرح الأسئلة، والغاية منها، فكثيرًا ما يسقط الباحثون في شرنقة المنهجية الغربية، مولعين بمصطلحاتها ومفاهيمها، وطرائقها البحثية، وقبل هذا وذاك، فإنهم يطرحون نفس الأسئلة التي يطرحها الغربيون، والتي تتصل بنظرتهم الثقافية، وهويتهم الحضارية، التي تختلف عن هويتنا وثقافتنا، وأيضًا عن حاجاتنا النهضوية ومشكلاتنا المجتمعية.

ليكون السؤال هو العتبة الأولى للمشكلة أولًا، ومن ثم يأتي المنهج، وتأتي الفرضيات، لأن المشكلة إذا كانت تخص مجتمعاتنا، فالأحرى أن تكون الأسئلة نفسها نابعة من حاجاتنا الفعلية، وإلا ستكون النتيجة مشابهة لما في الغرب، تدعم في النهاية مركزيته الفكرية التي ينظر بها إلى العالم. ولعل المثال الأبرز على ذلك، ما يفعله بعض الباحثين العرب، عندما ينظرون إلى التراث العربي بنفس المنظور الغربي، بما يحمله من تحيزات مضادة، ونظرة احتقارية، وعداء متوارث، وتكون منهجيتهم المعلنة هي الرؤية النقدية، وفي الحقيقة أنها استعلائية إقصائية.

ونرى أن هذه قضية محورية، لأنها تتصل بالهوية الحضارية لنا، والتي يمكن تطويع المناهج والنماذج المعرفية من أجل خدمة قضايانا، وتفسير مشكلاتنا، والبحث عن حلول لها. فنحن لا نرفض المنهجيات الغربية على الإطلاق، بل العكس هو الصحيح، نحن نقبلها لأنها وليدة لعلوم حديثة، لا يمكن تجاهلها. وإنما ننادي إلى أهمية تبيئة المنهج بمعنى أن يكون النظر في كيفية ملائمة المنهج للبيئة العربية، ثقافيًّا ونهضويًّا، وهذا يتأتى من العتبات الأولى في الدراسة الممثلة في أسئلتها.

وهو ما دعاه إلى البحث المعمق في قضية التحيز، بأبعادها الفكرية والثقافية والمنهجية، حيث يقول إن «قضية التحيز في المنهج والمصطلح هي إشكالية تواجه المثقف في العالم الثالث بحدة؛ فهو ينشأ في بيئة حضارية وثقافية لها نماذجها الحضارية والثقافية والمعرفية المختلفة، ولكنه يجد مع هذا نماذج أخرى، تحاول أن تفرض نفسها على مجتمعه، وعلى وجدانه وفكره. حيث سعى الإنسان الغربي متخذا الاستعمار وسيلة -منذ القرن التاسع عشر- إلى الغزو

الثقافي لشعوب العالم، بفرض نماذجه الحضارية والمعرفية. وهذه النماذج التي أثبتت نفعها في العالم الغربي، لها أيضًا جوانب مظلمة ومدمرة، وليس لها علاقة ضرورية بواقع الشعوب غير الغربية، مما أدى إلى تخلي كثير من شعوب العالم المستعمَرة والمستضعفة، فبدأت تتخلى عن تحيزاتها الثقافية، وتبني تحيزات الآخر الغربي، بما في ذلك تحيزاته ضدها»[1].

لقد وضع المسيري يده على العصب العاري في الأزمة، ألا وهو المنهج بصفته السبيل المولّد للمعرفة والعلم، خاصة على صعيد العلوم الإنسانية، ليؤكد حقيقة؛ الكل يهرب منها، وهي استمرار الاستعمار الثقافي، بعد رحيل الاستعمار العسكري، عبر اختراقات الهوية الجمعية للشعوب العربية والإسلامية، من خلال إيجاد جيل من الباحثين والأكاديميين، تعلموا علوم الغرب، وتشربوا بثقافته وطرائق تفكيره، لتكون المحصلة النهائية أن نفكر بعقول الغرب، ونتخذ من معاييرهم وقيمهم مصادر للحكم.

وقد تعمق المسيري أكثر في النظر في المتواري والمتضمن في النماذج المعرفية، حيث يشير إلى أن لكل نموذج بعده المعرفي، وخلفه معاييره الداخلية، التي تتكون من فروض ومعتقدات ومسلمات وإجابات عن أسئلة كلية ونهائية، تشكل جذوره الكامنة وأساسه العميق، وتزوده ببعده الغائي، وهو جوهر النموذج والقيمة الحاكمة التي تحدد النموذج وضوابط السلوك، وحلال النموذج وحرامه، وما هو مطلق، وما هو نسبي. فهي باختصار مسلمات النموذج الكلية، أو مرجعيته، التي تجيب عن الأسئلة الكلية أو النهائية. ويتم تكوين الصورة أو الخريطة المعرفية، وعمليات بقاء بعض عناصر الواقع، وتضخيمها، ومنحها مركزية استبعاد أو تهميش البعض الآخر، حسب هذه المعايير الداخلية[2]. وهذا بعدٌ غاية في الأهمية، لأنه

(1) فقه التحيز، عبد الوهاب المسيري، في كتاب إشكالية التحيز: رؤية معرفية، ودعوة للاجتهاد، تحرير: عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ط2، 1996، ج1، ص2، 3.

(2) العالم من منظور غربي، عبد الوهاب المسيري، دار الهلال، القاهرة، 2001، ص20، 21.

يتصل بالقيم التي يستند إليها الباحث في إصدار أحكامه، كما يتصل بالغاية المثلى التي يرومها الباحث في دراسته. بمعنى أن الباحث يضع في نظره رؤية كلية، بها قيم ومعايير يحكم بها على الظاهرة، وفي حالة التغريب الثقافي، فإن النموذج الغربي بقيمه يظل هو المثل والقدوة المبتغاة، وتقاس عليه مشكلات المجتمعات ومستوى تقدمها.

والمثال على ذلك، مشكلة التحرشات الجنسية في المجتمع، إذا أخذنا بالمعايير الغربية، فإن سبب المشكلة هو عدم تطبيق القانون على المتحرش، وغياب الوعي بالقانون، وأن هذا فعل مخل بالأخلاق المجتمعية، لأنه ينتهك كرامة الأنثى، ويخدش حياءها، فالغاية النهائية هنا (النموذج المثالي) هو المجتمع الأوروبي الذي يطبق فيها القانون، لردع شهوات النفس لا أكثر. أما إذا طبقنا النموذج الإسلامي، الذي هو عنوان هوية المجتمع عندنا، ومصدرٌ لقيمه وأخلاقه، فإن التحرش الجنسي لا يمكن حل إشكاليته، بدون ترسيخ القيم الإسلامية الأخلاقية في المجتمع كله، فلا مجال لعرض المشاهد الساخنة في السينما والميديا، التي تشعل الشهوات، وتعطي مشروعية مبطنة لمثل هذه الأفعال، كما يجب توعية الناس أن المتحرش آثم وعليه غضب الله تعالى، ونقمته، بتقوية الإيمان، والتمسك بهدي الإسلام، وتعاليمه، وهذا لا يعني عدم تفعيل القانون، بل يجب تفعيله، ضمن سياق أشمل، هو السياق الديني، الذي يهذب النفوس، ويردعها عن ارتكاب المنكرات، ويخوفها من العذاب.

فالمعرفي هو ما يتناول الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني، فالنموذج المعرفي يدور حول عناصر أساسية ثلاثة وهي: الإله، الطبيعة، الإنسان، مع التركيز على دراسة صورة الإنسان الكامنة في أي نموذج معرفي، وتكون الأسئلة المطروحة حول مدى علاقة الإنسان بالطبيعة، هل هو جزء منها أم مستقل عنها؟ وهل هو سابق للطبيعة، أم هي سابقة عليه؟ وما هدف الإنسان من وجوده؟ وما هي المعايير التي يستمد منها الإنسان قيمه أخلاقه؟ من عقله المادي، من جسده، من الطبيعة/ المادة، أم من قوى تتجاوز الطبيعي والإنساني والمادي؟[1].

(1) اللغة والمجاز، عبد الوهاب المسيري، ص219.

فكل نموذج معرفي يكمن خلفه نموذج مثالي (قيمي وذهني)، يتطلع الباحث إليه، ويقيس عليه، وعلى حد قول المسيري، فإن النموذج المعرفي الإدراكي يحدد مجال الرؤية، وأن المقولات التحليلية توجه مسار البحث، مع أهمية النظر في التبعية الإدراكية (للنماذج الغربية)، ويقترح في هذا الصدد وضع أسس لعلم جديد له آلياته ومناهجه، ومرجعيته، مقترحًا أن يطلق عليه «فقه التحيز»، لأن كلمة فقه تسترجع البعد الاجتهادي والاحتمالي والإبداعي للمعرفة، على عكس كلمة علم التي تؤكد جوانب الدقة واليقينية والحيادية والنهائية[1]، وهي رؤية شديدة العمق، ذلك أن التحيز يحتاج إلى فقه (فهم)، وليس إلى آليات علمية باردة مجردة، لأن الفقه يحرك عقل الباحث ووجدانه وفطنته، لكشف المستبطن وراء النماذج المعرفية من تحيزات، قد تسهم في تشويه الصورة، وضبابية الرؤية، فتكون المحصلة العلمية مشوشة.

هذا، وهناك مجموعة ثوابت تحكم التحيز في علاقته بالمنهج، وأيضًا بالذات الباحثة، يعددها المسيري بأنها مرتبطة -ابتداء- ببنية العقل الإنساني، الذي يستقبل ما يتفق مع تحيزاته، ويستبعد ما يضادها، ثم إنه لصيق باللغة، فمن الثابت أن كل لغة ترتبط ببيئتها الحضارية المعبرة عنها، والمنتجة لها. فكل هذا يعني أن التحيز من صميم المعطى الإنساني ومرتبط بإنسانية الإنسان، أي بوجوده ككائن غير طبيعي لا يردّ إلى قوانين الطبيعة العامة ولا ينصاع لها، فكل ما هو إنساني يحوي قدرا من التفرد والذاتية والتحيز، فالثقافي بضرورته متحيز. ولا بد أن ندرك أن التحيز قد يكون حتميًّا، ولكنه ليس نهائيًّا، لأن النهائي هو الإنسانية المشتركة، والقيم الأخلاقية الخيرية، المتفق عليها من جموع البشر، والتي تسبق أي تحيز وتنوع[2].

وبذلك، يكون التحيز من سمات الطبيعة الإنسانية بشكل عام، سواء كان لدى الباحث أو المفكر أو الإنسان البسيط العادي، وهذا منطقي، ومقبول، فكل إنسان يحكم على الأفعال والأقوال والأحداث في ضوء ثقافته وقيمه وقناعاته، ولكن لا

(1) العالم من منظور غربي، عبد الوهاب المسيري، ص43، 44.

(2) فقه التحيز، عبد الوهاب المسيري، ص19-21.

بد من وجود قاسم خيري مشترك بين جموع بني الإنسان، وإن تعددت مشاربهم ودياناتهم وثقافاتهم، ونأت أو تقاربت أوطانهم، واختلفت أزمانهم، وليس حالة الاستلاب أمام الفكر الغربي.

وهو ما يوضحه المسيري عندما يعلن رفضه لمفهوم «الإنسانية الواحدة»، النابع من الحضارة الغربية، والذي يفيد أن البشر يتسمون بشكل من أشكال التماثل والتشابه والتجانس الكامل، وهو ما يلغي كل الخصوصيات بل والأبعاد المركبة، ويصبح الإنسان الغربي هو المثل الأعلى والنمط الكامل، وعلى البشر أن يقلدوه حتى يلحقوا به، حيث إن التطور البشري يأخذ نموذجًا خطيًّا أحاديًّا، ينتهي باتباع النموذج الغربي، والخضوع لسيطرته الثقافية والمعرفية[1]، والتي تسللت عبر المناهج والنماذج المعرفية إلى الوعي العام العربي، وأيضًا إلى اللاوعي فصرنا ننظر بعيون الغرب، ونترقب رضا الغرب علينا، ونقيس نهضتنا بمدى السير على خطوات الغرب.

أما ما أسماه المسيري بـ «النهائي» في النموذج المعرفي، فيقصد به القيم الإنسانية العليا السامية، مثل التراحم والتسامح والعدالة ونشر الخير، وهي متفقة بين الإنسانية جمعاء، وتنبذ في المقابل التعصب والقتل الظالم ونهب الثروات، واستعباد الضعفاء، واحتلال الشعوب، والعبث بمقدراتها، فهو صورة أخرى لرفض هيمنة الآخر.

وعلينا أن نأخذ في الحسبان أن لب الفكر الإسلامي هو خيرية الإنسان، وهذا ما يجب أن يعيه أي باحث يتخذ من الإسلام هوية وثقافة ومرجعية، «فوظيفة المجتمع الإسلامي كانت ترتبط دائما بإيجاد مناخات وأجواء تمهّد لتحقق المكارم الأخلاقية، والكمالات المعنوية.. ففي نظر الإسلام تُبتنى قيمة كل مجتمع عند الله على كيفية تلقيه للقيم الأخلاقية والمعنوية، ومدى استفادته

(1) العلمانية والحداثة والعولمة (حوارات عبد الوهاب المسيري)، ص17.

منهـا، لا علـى أسـاس الثـروة والقـوة، وهـذه الحقيقـة يجـب علـى المسـلمين استحضارها، فـي مقابـل القـوى العلمانيـة والاسـتهلاكية، التـي تهـدد الأسـس التـي يقـوم عليهـا النظـام الإسـلامي»[1].

وهـذا يلتقـي مـع مفهـوم المسـيري بـ«الإنسـانية المشـتركة»، التـي تنطلـق -علـى حـد قولـه- مـن مفهـوم إسـلامي مـن الحديـث الشـريف «لا فضـل لعربـي علـى أعجمـي إلا بالتقـوى»[2]، حيـث نلاحـظ فـي هـذه الصياغـة تأكيدهـا علـى فكـرة المسـاواة، وتعتـرف فـي الوقـت نفسـه بالاختـلاف، فالعربـي عربـي، والأعجمـي أعجمـي، ولكـن المعيـار الـذي يتجاوزهمـا ويجمعهمـا هـو التقـوى. والحضـارة الإسـلامية تؤكـد علـى مبـدأ المسـاواة، وتقبـل فـي الوقـت ذاتـه عـدم التماثـل، فنجـد علـى سـبيل المثـال عمـارة إسـلامية هنديـة، وأخـرى مصريـة، وثالثـة شـامية، وفـي داخـل كل عمـارة تنوعـات فـي الحقـب، فعمـارة العصـر الأيوبـي تختلـف عـن العصـر المملوكـي، ثـم العصـر العثمانـي. فالإنسـانية المشـتركة تعنـي طاقـة إنسـانية كامنـة فـي كل البشـر، تتحقـق وتتشـكل فـي أزمنـة وأمكنـة ومختلفـة، وتتمايـز فيهـا[3].

فدعـوة المسـيري إلـى أن يكـون نهايـة النمـوذج وغايتـه إنسـانية القيـم والرسـالة، تتفـق تمامًـا مـع جوهـر الفكـر الإسـلامي وشـريعته، وهـو مـا يتوجـب مناقشـته، وطرحـه علـى طاولـة البحـث، لأنـه عنـوان هويتنـا الحضاريـة، فـي بعدهـا الإنسـاني والقيمـي، فـإذا كان الغـرب العلمانـي ينظـر باسـتعلاء إلـى الشـعوب الأخـرى، ويبيـح لنفسـه اسـتعمارها ونهـب ثرواتهـا، والإيغـال فـي قتـل شـعوبها، فـإن الإسـلام يحـرم هـذا تمامًـا دينًـا وخلقًـا وشـريعة.

ويكون السؤال: هل يعني النموذج التفسيري أن يكون الباحث منفصلًا عن القيم؟

(1) قلـب الإسـلام: قيـم خالـدة مـن أجـل الإنسـانية، حسـين نصـر، ترجمـة: داخـل الحمدانـي، مركـز الحضـارة لتنميـة الفكـر الإسـلامي، بيـروت، ط1، 2009، ص218.

(2) حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والبيهقي في الشعب، وأبونعيم في الحلية.

(3) العلمانية والحداثة والعولمة (حوارات عبد الوهاب المسيري)، ص17، 18.

يـرد المسـيري علـى هـذا السـؤال بـ نعـم ولا، فالباحـث يجـب ألا يحكـم علـى أي نسـق فكـري إلا بعـد توصيفـه بدقـة، وبعـد ذلـك يمكنـه أن يطلـق الأحـكام القيميـة، فـي ضـوء دراسـته، علـى وعـي منـه أن التقييـم يختلـف عـن الوصـف، وأن يكـون مـدركًا لنسـق القيـم الـذي ينطلـق منـه، والفلسـفة التـي يصـدر عنهـا، وأن يعـرف أن الحكـم القيمـي هـو فـي النهايـة حكـم يحـوي داخلـه شـرعيته، فـإن كان يحكـم علـى الظاهـرة مـن منظـور إسـلامي، فإنـه يفعـل ذلـك لأنـه مؤمـن بالإسـلام. فمنطـق الحكـم الذاتـي، يختلـف عـن منطـق الأشـياء (الموضوعـي)، مـع أهميـة رفـض الموضوعيـة الفوتوغرافيـة، التـي تسـجل كل شـيء فـي العقـل، متوهمـة أنـه صفحـة بيضـاء، وأنـه يسـجل كل شـيء دون حـذف، أو تضخيـم أو تشـويه، فالمعرفـة عمليـة تكامليـة مترابطـة، لابـد مـن الانتبـاه إلـى هـذا[1].

فالموضوعيـة التامـة، لا بـد أن تكـون كائنـة فـي المرحلـة الأولـى مـن البحـث، بـأن يقـوم الباحـث بتفسـير القضيـة ووصفهـا بدقـة، والوقـوف علـى كل أبعادهـا، ثـم لـه مطلـق الحـق أن يقـدم حكمـه القيمـي، مـن خـلال المعاييـر التـي يسـتند إليهـا وتكـون مرجعيـة لـه.

وهـذا، يجعلنـا نعيـد النظـر فـي قضيـة الموضوعيـة المتوهمـة، فهـي غيـر كائنـة علـى إطلاقهـا، وإنمـا لابـد مـن الانتصـار إلـى التفسـير الدقيـق، والصرامـة المنهجيـة، ولـكل باحـث مطلـق الحريـة فـي قـراءة نتائـج بحثـه وفـق مرجعيتـه الثقافيـة، علـى أن يكـون مسـتندًا إلـى أسـس علميـة سـليمة، وليسـت تحيـزات مضـادة مسـبقة.

(1) الثقافة والمنهج، ص233.

الخاتمة

نصل في نهاية هذه الدراسة إلى جملة من النتائج:

أولها: يتشكل النموذج التفسيري من جملة من المعارف والنظريات والإجراءات والطرائق التي يتوسل بها الباحث، وهو بصدد دراسة ظاهرة أو قضية ما. فلكل باحث الحرية في تشكيل نموذجه التفسيري، شريطة أن يتم هذا عن قناعة تامة، بأهمية نموذجه، وأنه يساهم به في تفسير الظاهرة أو القضية، وليس مجرد قناعات خارجية يسقطها من علٍ، وإنما هو يفسر ويدقق ويعمق ثم يخرج بأحكام.

ثانيها: على المفكر ذي المشروع المعرفي أن يكون عميق الثقافة، موسوعي المعرفي، شديد الملاحظة، لكي يستطيع بناء نموذجه التفسيري، فكثير من الباحثين -خاصة طلاب الدراسات العليا ومَن في حكمهم- يتصدون للبحث العلمي وهم تقريبًا مسطحو الفكر والمعرفة، ويظن أن المنهجية سبيل وحيد للدراسة، ويتناسون أن القضية ليست في المنهج، وإنما في ثقافة الباحث التي ستطبق المنهج، وتقرأ الظاهرة، وتفسرها، وتستطيع أن تبني نموذجها المعرفي الخاص بها، فلا نموذج يُبنى على جهل وتسطح.

ثالثها: لكل إنسان تحيزاته، ولا يمكن بأي شكل إنكار التحيز، بل هو كامن في الذات الباحثة، ولكن هناك تحيزات مقبولة، ومطلوبة، ويجب الانتصار لها، وهي التحيزات للقيم الإنسانية العليا، مثل الحرية، والفضيلة، والعدالة، والتسامح، والتراحم. وهناك تحيزات مرفوضة ومدانة، وهي التي تعلي من قيم ضد الإنسانية، مثل: التعصب واحتقار الغير، والتفاخر بالأعراق، والنظر بدونية إلى

الثقافات والشعوب، وإعلاء نموذج ثقافي وحضاري بعينه، وغمط بقية النماذج في المقابل. وهو ما يجب أن يعيه الباحثون المحايدون. فنعم؛ لكل ما هو إنساني. ولا؛ لكل ما هو ضد الإنسانية.

رابعها: نؤيد دعوة المسيري إلى فقه التحيز، على أن توضع له آليات وسبل، تكون مُعينًا للباحثين على كشف مكنونات التحيز في المفردات اللغوية والإشارات السيميائية، والطروحات المعرفية، على أن يتم تأصيل ذلك وفق الثقافة الإسلامية.

خامسها: تشكل النموذج التفسيري المركب رفضا للتفسيرات الأحادية ذات البعد الواحد، أو الثنائية ذات البعدين، وأيضا ضد التفسيرات المبتسرة والمجزأة والمؤدلجة، فكلها لا تقدم تفسيرًا كليًّا متكاملًا، وإن شمل جزءًا من الحقيقة، ولكنه يظل في النهاية غير مكتمل. وبالطبع فإن التفسير المعرفي المركب ليس نهائيًّا، وإنما هو اجتهاد من الباحث؛ أملًا في تقديم رؤية مكتملة، لا تدَّعي الكمال، وإنما ترنو للاكتمال.

المصادر والمراجع

أولًا: الكتب:

- بنية الثورات العلمية، توماس س. كون، ترجمة: د. حيدر حاج إسماعيل، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007.

- الثقافة والمنهج (حوارات مع عبد الوهاب المسيري)، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2009.

- دراسات في علم الاجتماع، د. صبحي محمد قنوص، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001.

- دفاع عن الإنسان: دراسات نظرية وتطبيقية في النماذج المركبة، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2006.

- فقه التحيز، عبد الوهاب المسيري، في كتاب إشكالية التحيز: رؤية معرفية، ودعوة للاجتهاد، تحرير: عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة، ط2، 1996.

- قلب الإسلام: قيم خالدة من أجل الإنسانية، حسين نصر، ترجمة: داخل الحمداني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط1، 2009.

- العالم من منظور غربي، عبد الوهاب المسيري، دار الهلال، القاهرة، 2001.

- العلمانية والحداثة والعولمة (حوارات عبد الوهاب المسيري)، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر للنشر، دمشق، 2013.

- اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002.

- مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ماكس فيبر، ترجمة: صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2011.

- المنطق الحديث ومناهج البحث، د. محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1953.

- موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2001.

- موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية، أندرو إدجار، وبيتر سيد جويك، ترجمة: هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2014.

ثانيًا: المجلات والدوريات:

- السياسات الإسرائيلية الأمريكية ومثلث سوريا ولبنان والعراق: التطورات، الأسباب، الأهداف، أمجد أحمد جبريل، مجلة قضايا ونظرات، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، القاهرة، العدد 16، يناير 2020.